ساطع الحصري
1968-1880

ساطع الحصري ابن عائلة من حلب، متمرسة في التجارة. ابوه محمد هلال، درس في الأزهر وعمل في المحاكم الشرعية في حلب. بسبب نجاحه عين رئيس محاكم الاستئناف في صنعاء، اليمن. وقد ولد ابنه الثالث ساطع بن محمد هلال الحصري عام 1880.

وقد أمضى ساطع الحصري اول 13 سنة من حياته متنقلا مع عائلته من اليمن الى اضنا ثم أنكرا، ثم طرابلس الغرب ثم عودة الى اليمن ثم الى كونيا. بسبب هذا الترحال لم يدرس ساطع في مدارس رسمية، وقد تلقى تعليمه في البيت حيث كانت اللغة الرئيسية المستخدمة هي التركية بالإضافة الى العربية (فقط عام 1919 اصبحت لغة ساطع الحصري الاساسية العربية). وقد تعلم ساطع الحصري الفرنسية من اخويه فأتقنها. أُرسِل ساطع الحصري عام 1893 الى مدرسة في استنبول مخصصة لإعداد موظفي الدولة عام 1893. وقد أمضى 7 سنوات في هذه المدرسة وقد اهتم بالعلوم المختلفة فقرأ في علم النبات والرياضيات وتاريخ الدولة العثمانية واستكمل دراسته للفرنسية، الخ. عند انهاء المدرسة قضى 8 سنوات مدرساً لهذه المواد في البلقان. في هذه الفترة بدأت اهتماماته في المواضيع الاجتماعية والسياسية.

كلف في عام 1909 ادارة دار المعلمين في استنبول. وبقي لعام 1912. أثناء عمله سافر عامي 1910-1911 الى اوروبا للتعرف على مناهج التعليم في اوروبا، للاستفادة من تجربة الاوروبيين، أُعجب بالتطورات التي حصلت في اوروبا. أصبح من أشد المدافعين عن تطوير نظام التعليم والتركيز على الفرد وتنمية الروح العلمية والابداعية عند الاجيال الجديدة. كان من أنصار الاصلاحات في الدولة العثمانية والاستفادة من العلوم الغربية واعادة تأصيل الوطنية بين العثمانيين وكانت نماذج فرنسا، ألمانيا نماذج مهمة استلهم منها بعض افكاره كما كان معجبا بتجربة اليابان. وقد كان من أقوى المدافعين عن الفكرة العثمانية.

لكن في أعوام 1918-1919 بدأ يتجه باتجاه العروبة. فشل الدولة العثمانية بالاصلاحات وتصاعد القومية التركية دفع ساطع الحصري العربي باتجاه العروبة.

خرج من سوريا مع الملك فيصل الأول، والتحق به بعد ذلك في العراق حيث تولى شؤون المعارف والثقافة. جُرد من جنسيته العراقية وأخرج من العراق عام 1941، وذلك لتأييده للجانب العراقي في الحرب العراقية-البريطانية. عمل مستشارا للجنة الثقافية في جامعة الدول العربية. أسس معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة عام 1953 وأصبح مديرا له، والذي سمي فيما بعد معهد البحوث والدراسات العربية. توفي في بغداد عام 1968 ودفن في مقبرة الامام الأعظم.

الوطنية والقومية*

الوطنيــة والقوميــة مــن اهــم النزعــات الاجتماعيــة التــي تــربط الفــرد البشــري بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها ويضحي في سبيلها. ومن المعلوم أن الوطنية هي حب الوطن، والشعور بارتباط باطني نحوه، والقومية هي حب الأمة، والشـعور بارتبـاط بـاطني نحوهـا. والـوطن - مـن حيـث الأسـاس- إنمـا هـو قطعـة مـن الأرض، والأمة- في حقيقة الأمر- إنما هي جماعة من البشر.

فنستيطع أن نقول - بناء على ذلك - إن الوطنية: هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن، والقومية: هي أرتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمـة. ولكـن، ممـا تجـب ملاحظتـه فـي هـذا الصـدد أن مفهـوم الوطنيـة لا يختلـف - فـي الحقيقة- عن مفهوم القومية كل هذا الاختلاف. ذلك لأن حب الوطن يتضمن، بطبيعته، حب المواطنين الذين ينتمون الى ذلك الوطن، كما أن حب الأمة يتضمن - في الوقت نفسه - حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة. ولهذا السبب يتقارب مفهوم الوطنية مع مفهـوم القوميـة تقاربـا كبيـرا. غيـر اننـا إذا أردنـا أن نحـيط علمـا بماهيـة هـذين المفهـومين إحاطـة تامـة يجـب علينـا أن نلاحـظ علاقـة كـل منهمـا بمفهـوم ثالـث، هـو مفهـوم الدولـة. فالدولـة هيئـة سياسـية يعرفهـا علمـاء الحقـوق والاجتمـاع بقـولهم " جماعـة مـن البشـر، يعيشون في أرض معينة مشتركة: مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة".

يظهر من هذا التعريف المجمل أن مفهوم الدولة يرتبط بمفهوم الوطن من جهة وبمفهوم الأمـة من جهـة أخـرى، فيكـون ذلـك بمثابـة خـط واصـل بـين هـذين المفهـومين، ولكـن هـذا الارتبـاط لا يكـون علـى نمـط واحـد فـي كـل الـدول والأمـم وفـي جميـع أدوار التاريخ، بل إنه يلبس أشكالا متنوعة، فيختلف بين أمة وأمة ، وبين دور ودور. ونحن نستطيع أن نلخص أهم هذه الأشكال، كما يلي:

(أ) ان الامـة قـد تؤلـف دولـة واحـدة مسـتقلة. لهـا علَـمَ خـاص وحكومـة خاصـة وجيش خاص. فالأرض التي تسود عليها تلك الدولة تكون وطنا للأمة بأجمعها، فيشترك جميع أفراد الأمة وجميع تابعي الدولة في حب ذلك الوطن وتبجيله وخدمته. في هذه الحالـة، تنطبـق الوطنيـة علـى القوميـة تمـام الانطبـاق، ولا تختلـف مطالبهـا عـن مطالـب القومية اختلافاً فعلياً، فيكون الوطن "مجموع الأراضـي التي تعيش عليها الأمة، وتدير سياستها الدولة". والوطنية تُماثِلُ القومية تمام المماثلة، ولا تخالفها أو تعارضها بوجه من الوجوه.

(ب) غير أن الأمة قد تؤلف دولا عديدة، كل واحدة منها مستقلة بنفسها، ففي هذه الحالة توجِد كل دولة من هذه الدول وطنية خاصة بها، وتسعى الى ربطها جميعها بربـاط معنـوي عـام. فلا ترتـاح القوميـة - فـي هذه الحالـة - الـى الوطنيـات الراهنـة تمـام الارتياح، بل تنزع الى إنشاء دولة عامة تجمع وتوحد تلك الدول المتعددة بشكل من

---

*المصدر: ساطع الحصري، الأعمال القومية لساطع الحصري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية .1985

الأشكال. وتعمل بذلك على توليد "وطنية جديدة عامة"، تسمو فوق جميع الوطنيات الراهنة الخاصة. فنستطيع أن نقول أن النزعة القومية في مثل هذه الحالات - تولِّد فكرة "وطن معنوي مثالي" أوسع وأعظم وأعلى من الأوطان الراهنة المذكورة، فتصبو النفوس الى تحقيق هذا "الوطن المرقوب والمرغوب" وتندفع وراء اخراجه من عالم الفكر والتمني الى عالم الحقيقة والواقع. ومن البديهي ان القومية - في هذه الحالة - لا تنطبق على الوطنية تمام الانطباق، بل تختلف عنها اختلافاً بيّنا، لأنها تتطلب تقديم مصالح الأمة العامة على مصالح الاوطان الخاصة، وتثير مطالب الوطن الموحد المرقوب الى جانب مطالب الأوطان الراهنة.

(ج) وقد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها، وتابعة لدولة أجنبية عنها، وفي هذه الحالة، تفرض الدولة الحاكمة على جميع أفراد الأمم الخاضعة لها "وطنية عامة واسعة النطاق"، وتطلب منهم أن يرتبطوا بها وبسائر الأمم الخاضعة لها برباط هذه الوطنية، وان يخدموها بدافع هذه الوطنية، أما القومية فتعارض ذلك أشد المعارضة، وتولد في نفوس الأفراد نزوعاً الى الاستقلال عن الدولة المذكورة، وتجعلهم يصبون الى الانفصال عن الامة الحاكمة ويسعون وراء تكوين دولة خاصة بهم. فيحدث من جرّاء ذلك نزاع وخصام بين الوطنية التي تفرضها الدولة الحاكمة وبين القومية التي يشعر بها أفراد الأمة المحكومة. فتكون مرامي القومية حينئذ أضيق نطاقاً من أهداف الوطنية. فإن الوطنية التي تغذيها الدولة تطلب من أفراد الامة الارتباط بجميع اراضي الدولة، بينما القومية تحمل هؤلاء على الاهتمام بالقسم الخاص بهم دون غيره. إنها تجعلهم يتوقون الى الانفصال عن الدولة المذكورة - وعن الأمم الأخرى التي تؤلفها- وينزعون الى الاستقلال بوطن خاص أصغر من الوطن العام، في ظل دولة خاصة أصغر من الدولة القائمة. فنستطيع أن نقول : إن القومية في هذه الحالة ترمي الى تكوين وطنية جديدة خاصة أضيق نطاقاً من الوطنية الراهنة العامة.

(د) ولكن الامة قد تكون محرومة من الاستقلال و- في الوقت نفسه - مجزأة وموزعه بين عدة دول أجنبية عنها. ومن الطبيعي أن كل دولة من هذه الدول الحاكمة - في مثل هذه الأحوال - تفرض على جزء الامة الخاضع لها وطنيتها هي، وتعمل على ربط أفرادها برباط هذه الوطنية، ولكن روح القومية في تلك الأمة المجزأة تعارض ذلك معارضة شديدة، وتحمل جميع أفراد الامة في جميع الاقسام المذكورة على مقاومة الحالة الراهنة. وذلك بالاستقلال عن جميع الدول الحاكمة من جهة وبالاتحاد فيما بينها من جهة أخرى، لتكوين دولة قومية جديدة، تجمع أقسام الامة المتجزئة تحت لواء واحد، على أرض وطن قومي واحد.

هذه هي الأشكال السياسية الأساسية التي تحدد علاقة الامة بالدولة والوطن، وتعين علاقة القومية بالوطنية. إن الامة السويدية - في الحالة الحاضرة - من أبرز نماذج الشكل الأول. وأما الامة الالمانية قبل اتحادها سنة 1870 فكانت من أحسن الامثلة على الشكل الثاني، والأمة البلغارية في عهد خضوعها للدولة العثمانية كانت من أمثلة

الشكل الثالث، وأما الأمة البولونية - في الفترة التي مضت بين اقتسامها السابق و بين الحرب العالمية الأولى - فكانت من أحسن نماذج الشكل الرابع.

يتبين من ذلك كله: ان القومية تنطبق على الوطنية تارة، وتختلف عنها تارة أخرى، وتأثيرها ينضم الى تأثير الوطنية احيانا، ويخالف ذلك التأثير احيانا اخرى، ولكننا اذا تركنا هذه الفروق جانبا وألقينا نظرة إجمالية على سير الوقائع التاريخية، استطعنا ان نقول: ان القومية أصبحت من أهم العوامل التي تؤثر في تطور الدول وتَكَوّنْ الأوطان منذ أوائل القرن التاسع عشر. وأما قبل ذلك- لا سيما في القرون الوسطى وفي القرنين الأولين من القرون الأخيرة - فكان الأوروبيون أنفسهم يربطون مفهوم الوطن بمفهوم الدولة ربطاً وثيقاً، ولا يفرقون بينهما أبداً. زد على ذلك أنهم كانوا يخلطون بين الدولة وبين الوطن والملك أيضاً. فالوطنية حينئذ لم تكن تعني شيئا غير الارتباط بالملك والمملكة، وغير الاخلاص لصاحبها، إنها كانت تتطلب الخدمة في سبيل مجد الملك وشرف المملكة، وبذل المال والنفس في سبيل إدامة ذلك الشرف وتوسيع هذا المجد.

وكثير ما كانت البلدان والامصار تنتقل من حكم الى حكم، ومن مملكة الى مملكة، من جرّاء زواج الملوك ومصاهرة الأمراء والبيوتات المالكة. واذا ما انتقلت مقاطعة من المقاطعات من مملكة الى اخرى - لمثل هذه الاسباب - كان يصبح من الواجب على أهل المقاطعة أن يطيعوا ملكهم ويتعلقوا بمملكتهم الجديدة، وبتعبير آخر: كان يترتب عليهم - حينئذ - ان يكتسبوا وطنية جديدة مختلفة عن وطنيتهم السابقة. وأما السبب الأصلي لهذه الأحوال كلها، فكان الاعتقاد القائل بأن الملوك إنما يحكمون بحق موهوب من الله، ويديرون شؤون الدولة والرعية بمشيئة الله. وعندما تزعزع هذا الاعتقاد ثم زال، كان من الطبيعي أن يتبدل كل شيء في هذا المضمار تبدلاً كلياً، فأخذت فكرة القومية تلعب دوراً هاماً في تكوين الدول وتقرير الاوطان. ولذلك شهد التاريخ تفكك أوصال بعض الدول من جهة، واتحاد أقسام بعض الامم من جهة أخرى،- تحت تأثير النزعات القومية-، كما شهد تغلب حقوق القوميات على الحقوق التي كانت تعزى الى الملوك والى الفتوحات.

قلنا أن الوطنية والقومية من النزعات الاجتماعية، ويجب أن نلاحظ فوق ذلك، أن كل واحدة منهما- مثل سائر النزعات النفسية- تولد بعض العواطف وتؤدي الى بعض الافعال: انها تولد في نفوس الأفراد بعض العواطف، وتحملهم على القيام ببعض الأعمال.

إن الانسان يحب أمته- تحت تأثير النزعة القومية- ويشعر نحو ها بارتباط قلبي شديد، ويعتبر نفسه جزءا منها، فيفرح لكل ما يزيد مجدها، ويتألم من كل ما يقلل قوتها. إنه يصبو الى رؤيتها قوية وناهضة، ويفتخر بأمجاد ها، ويتألم لمصائبها، وينزع الى عمل كل ما يستطيع عمله للدفاع عن كيانها وعن كرامتها. كما أن الانسان يحب وطنه - تحت تأثير النزعة الوطنية-، فيشعر نحوه بتعلق قلبى عميق، فيفرح لسعادته، ويتفجع عند نكبته، ويسعى لخدمته. حتى أنه لا يتأخر عن التضحية في سبيله، اذا اقتضى الحال.

وأما اذا بحثنا عن منشأ هاتين النزعتين، فنستطيع أن نرجعهما- من حيث الاساس- الى حب الموطن والأهل. ونستطيع أن نقول: ان منبع الوطنية- وبذرتها الأولى- حب الموطن، وأما منبع القومية وبذرتها الاصيلة، فحب الأهل. ذلك لأن الانسان يشعر بتعلق عاطفي وارتباط قلبي بالمحل الذي ولد ونشأ وترعرع فيه، كما يشعر بتعلق باطني نحو أهل ذلك المحل ونحو جميع الناس الذين عايشهم وعاشرهم وألفهم في صغره وصباه.

إن حب الوطن يشبه حب الموطن الذي شرحناه، وحب الأمة يماثل حب الاهل الذي وصفناه. فنستطيع أن نقول: ان حب الوطن انما يتولد من توسع دائرة حب الموطن، كما أن حب الأمة انما يتولد من توسع نطاق حب الأهل. فإن الانسان ينظر الى موطنه كجزء من الوطن، كما ينظر الى اهله وأهل بلدته كفرع من المواطنين. ويحب وطنه ومواطنيه، كما كان يحب بلدته وأهل بلدته، ويفتخر بوطنه وبأمته، كما كان يفتخر ببلدته وبأهله وبذويه.

ومع هذا يجب أن يلاحظ في هذا الصدد: ان علاقة المرء بالوطن لا تنشأ من تفاعل مادي محسوس، كما تنشأ علاقته بمسقط الرأس، وكذلك حدود هذا الوطن لا تتعين بالمشاهدة المباشرة، كما يحدث ذلك في مسقط الرأس. وذلك لأن الفرد لا يكون قد شاهد- عادة- إلا قسماً صغيراً من الوطن، ولا يكون قد عاشر الا فئة قليلة من أبناء الأمة. ولذلك نستطيع أن نقول: ان الروابط التي تربط المرء بوطنه وبأمته، تنشأ من عوامل فكرية ومعنوية، أكثر مما تنشأ من أسباب حسية ومادية.

إن العوامل التي تربط الافراد بعضهم ببعض وتحبب بعضهم الى بعض- فتؤلف منهم أمة واحدة - كثيرة ومتنوعة جدا: الاعتقاد بوحدة الأصل والمنشأ، والاشتراك في اللغة والتاريخ، والتشابه في العواطف والعوائد، والتماثل في ذكريات الماضي ونزعات الحال وآمال المستقبل.... كلها من جملة هذه الروابط المعنوية التي تولد التقارب والتعاطف، وتكون الأمم والأوطان...

فكل فرد من أفراد البشر - ينتسب عادة الى عدة جماعات - في وقت واحد. وذلك لأن كل نوع من أنواع الروابط الاجتماعية، يؤلف جماعة من نوع خاص، ويدخل الفرد في تلك الجماعة. وكل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية - من الأسرة والمهنة واللغة، الى الميول الفنية، والاعتقادات الدينية، والاتجاهات المذهبية - يولد رابطة خاصة، تربط الافراد بعضهم ببعض، وتكون منهم جماعات ومجتمعات متنوعة، بعضها متلائم وبعضها متنافر، بعضها تابع وبعضها متبوع.

وكل فرد من الأفراد، يرتبط بجماعات من أبناء نوعه بعدة أنواع من هذه الروابط المعنوية، فينتسب الى عدة أنواع من هذه الجماعات والمجتمعات. وهذه الروابط المتنوعة تتجاذب مشاعر الفرد وميوله، وتجعله يسير وكأنه مدفوع بدوافع عديدة، ومجذوب بجواذب متنوعة. غير أن قوة كل من أنواع هذه الروابط وقيمتها، تختلف بين فرد وفرد، كما تختلف بين حال وحال، وبين عهد وعهد. ولكنا اذا لاحظنا أنواع الروابط التي تكون الجماعات السياسية - على وجه أخص - نجد أن أقواها وأفعلها، هي نزعة

القومية المتولدة من وحدة اللغة والتاريخ ... وهي التي تتغلب على كل ما سواها، وتستتبعها استتباعاً...

عوامل القومية

إن أول ما يخطر على البال - ويلفت النظر - في هذا الصدد، هو وحدة الأصل والمنشأ. يظن الناس عادة أن كل أمة من الأمم تنحدر من أصل واحد، ويزعمون أن جميع أفراد الأمة الواحدة يكونون بمثابة الاشقاء المنحدرين من صلب أب واحد. ولذلك نجدهم يكررون في كل مناسبة كثيرا من التعبيرات الدالة على هذا الزعم، كقولهم: "اجدادنا، آباؤنا، إخواننا.." غير أن هذا الظن لا يستند الى أساس صحيح. لأن جميع الابحاث العلمية - المستمدة من حقائق التاريخ ومن مكتشفات علم الانسان ومكتسبات علم الاقوام - لا تترك مجالا للشك في أنه لا يوجد على وجه البسيطة أمة تنحدر من أصل واحد فعلا، ولا توجد على الارض أمة خالصة الدم تماماً.

فإن جميع الأمم التي نعرفها الآن قد تكونت من تداخل عشرات العروق والاجناس، في مختلف أدوار التاريخ، حتى أن الاجناس التي عاشت في القرون المتقدمة على أدوار التاريخ، كانت أيضا متخالطة ومتداخلة جدا. ونستطيع أن نقول بكل جزم وتأكيد: أن وحدة الأصل والدم في الأمم انما هي من الأوهام التي استولت على العقول والأذهان، من غير ان تستند الى دليل أو برهان.

لا الانكليز ولا الروس، ولا الالمان، ولا البلغار... كانوا متجانسين من حيث الاصل والنسل. بل أن كل واحدة من هذه الأمم انما تكونت من تداخل وتمازج عشرات الاقوام. حتى الأمة الفرنسية نفسها لا تنحدر من أصل واحد. هذه الامة التي كانت أسبق الأمم الاوروبية الى تكوين وحدة سياسية قومية، حتى هذه الأمة نفسها انما تكونت من اختلاط عدد كبير من الاقوام والاجناس. وقد تبين من الابحاث العلمية التي لا مجال للشك فيها أن عدد الأقوام التي كونت فرنسيي اليوم يتجاوز الستين. ولهذا فإننا اذا قارنا سكان شمال فرنسا بسكان جنوبها- من حيث الأوصاف البدنية والخصائص الجنسية- وجدنا بينهم بونا شاسعا جدا، فإن مشابهة أهالي بعض المقاطعات الشمالية - كلبريتاني والنورماندي مثلا - للانكليز والالمان، أكبر بكثير من مشابهتهم لأهالي سائر المقاطعات، وبخاصة أهالي المقاطعات الجنوبية.

انني أشبه الأمم من هذه الوجهة بالأنهر العظيمة. فمن المعلوم أن كل نهر من الأنهر تجري فيه مياه أتت من منابع ومصادر وروافد مختلفة. والأنهر الكبيرة تكون كثيرة المنابع وعديدة الروافد بوجه عام، واذا ما بحثنا عن منبع نهر من الانهر، فانما نفعل ذلك بالنسبة الى ما هو الغالب والاساسي، ولا نعني بذلك أن جميع مياه النهر تأتي من منبع واحد فعلا.

إن أحوال الأمم ومنابعها تشبه ذلك شبهاً كبيراً. ان الانكليزي المثقف لا يعرف ما اذا كان بينه وبين شكسبير أو نيوتن أو ميلتون رابطة أصل ونسب، ومع ذلك فانه يعتبر هؤلاء اجداداً له وأسلافاً، ويفتخر بهم أكثر مما يفتخر بأجداده الحقيقيين. وكذلك

الفرنسي المثقف: فانه لا يتساءل عما اذا كان يجري في عروقه حقيقة شيء من دم شارلمان أو راسين أو فولتير، ومع هذا يعتبر هؤلاء كلهم أجداداً له وأسلافاً، ويعتز بهم أكثر مما يعتز ببني أسرته الاقربين.

فيجدر بنا نحن العرب أيضا أن نحذو حذو هؤلاء: قد لا نعرف ما اذا كان يربطنا شيء من أواصر القرابة والنسب بسعد بن أبي وقاص مثلا، أو خالد بن الوليد، أو ابن الهيثم، أو أبي العلاء المعري. ولكنا مع ذلك يجب أن ننتسب الى هؤلاء والى امثالهم، ونعتبرهم أجدادنا المعنويين، ونفتخر بهم اكثر مما نعتز ونفتخر بأبناء أسرنا الحقيقيين. إن المهم في القرابة والنسب ليس رابطة الدم في حد ذاتها، بل هوالاعتقاد بها والنشوء عليها. وهذا هو الواقع، بالنسبة الى الافراد والجماعات على حد سواء: ان الاعتقاد بوحدة الأصل- والشعور بالقرابة- يعمل عملاً هاماً في تكوين الامم، سواء أكان ذلك موافقاً للحقيقة أم مخالفاً لها، لأن القرابة بين أفراد الأمم تكون قرابة نفسانية معنوية، أكثر مما تكون جسمانية ومادية. لقد قررنا أن القرابة في الامم تكون نفسانية ومعنوية أكثر مما تكون جسمانية ومادية.

ومن البديهي أنه لا يجوز لنا أن نكتفي بتقرير هذه الحقيقة، بل يجب علينا أن نسعى لتعليلها أيضا: يجب علينا أن نبحث في الوقت نفسه عن كيفية تولد هذه القرابة المعنوية، وأن نتحرى الاسباب الموجبة لها، والعوامل المؤدية اليها. إن هذه الأبحاث توصلنا الى الحقيقة التالية: إن أهم العوامل التي تؤدي الى تكوين القرابة المعنوية التي يشعر بها الأفراد في الأمم المختلفة، هي اللغة والتاريخ، فإن الاعتقاد بوحدة الأصل انما يكون في الدرجة الأولى من الوحدة في اللغة والاشتراك في التاريخ.

فلندرس تأثير كل واحد من هذين العاملين الهامين بشيء من التفصيل.

اللغة: هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد البشري بغيره من الناس. لأنها أولاً، واسطة التفاهم بين الأفراد، ثم هي فضلاً عن ذلك، آلة التفكير. لأن التفكير - حسب تعبير أحد الحكماء- ما هو الا تكلم باطني، والتكلم انما هو نوع من التفكير الجهري. وأخيرا، ان اللغة هي واسطة لنقل الافكار والمكتسبات من الآباء الى الابناء، ومن الأجداد الى الاحفاد، ومن الاسلاف الى الاخلاف.

وهذا، واللغة التي ينشأ عليها الانسان، تكيف تفكيره بكيفيات خاصة، كما أنها تؤثر في عواطفه أيضا تأثيراً عميقاً، فإن اللغة التي يسمعها المرء منذ صغره، اللغة التي تخاطبه بها أمه منذ أوائل حياته الواعية، لغة التنويمات والأغاني التي تهز مشاعره منذ طفولته، تؤثر بطبيعة الحال تأثيرا عميقا في تكوينه العاطفي. ولذلك تجد أن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة في التفكير وفي الشعور، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية، ونستطيع أن نقول لذلك: أنها تكون أقوى الروابط التي تربط الأفراد بالجماعات.

وبما أن اللغات تختلف بين قوم وقوم، فمن الطبيعي ان نجد مجموع الافراد الذين يشتركون في اللغة، يتقاربون أكثر من غيرهم، ويتماثلون ويتعاطفون أكثر من

سواهم، ويتميزون عمن عداهم، فيؤلفون بذلك أمة متميزة عن الأمم الأخرى. ونستطيع أن نقول لذلك: أن الأمم يتميز بعضها عن بعض-في الدرجة الأولى- بلغتها، وان حياة الأمم تقوم- قبل كل شيء- على لغاتها. واذا أضاعت أمة من الأمم لغتها، وصارت تتكلم بلغة اخرى، تكون قد فقدت الحياة واندمجت في الأمة التي اقتبست عنها لغتها الجديدة.

كثيراً ما يرينا التاريخ، أن بعض الامم تستولي على أمة أخرى، وتخضعها لارادتها وتسير شؤونها كما تشاء. إن هذا الاستيلاء يفقد الأمة المغلوبة استقلالها، ولكنه لا يمس كيانها، ما دامت الأمة المذكورة محافظة على لغتها الخاصة بها، وما دامت متميزة من الأمة المستولية عليها بهذه اللغة الخاصة. وقد قال أحد المفكرين: "ان الامة المحكومة التي تحافظ على لغتها، تشبه السجين الذي يمسك بيده مفتاح سجنه". انها تستطيع أن تفلت من سجنها هذا، فتسترد حريتها واستقلالها في يوم من الأيام، لأنها تبقى حية بحياة لغتها، وتظل محافظة على كيانها كأمة، برغم أنها تكون قد فقدت شخصيتها كدولة. ولكن الامة المذكورة اذا فقدت - بمرور الزمان- لغتها الخاصة واقتبست وتبنت لغة الدولة المستولية عليها، تكون قد فقدت الحياة بتاتا، واندمجت في كيان الأمة التي أعطتها لغتها الجديدة، فلا يبقى ثمة أمل لعودتها الى الحرية والاستقلال. يتبين من ذلك كله: أن اللغة هي روح الامة وحياتها، انها بمثابة محور القومية وعمودها الفقري، وهي من أهم مقوماتها ومشخصاتها؟

اما التاريخ فهو بمثابة شعور الامة وذاكرتها. فإن كل أمة من الأمم، انما تشعر بذاتها وتكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص. عندما أقول التاريخ، لا أقصد بذلك التاريخ المدون في الكتب، - التاريخ المدفون بين صحائف المطبوعات والمخطوطات-، بل أقصد بذلك التاريخ الحي في النفوس، الشائع في الاذهان، المستولي على التقاليد.

وإن وحدة هذا التاريخ تولد تقارباً في العواطف والنزعات، انها تؤدي الى تمثل في ذكريات المفاخر السالفة وفي ذكريات المصائب الماضية، والى تشابه في أماني النهوض وآمال المستقبل. ولذلك نستطيع أن يقول: ان الذكريات التاريخية تقرّب النفوس، وتكون بينها نوعاً من القرابة المعنوية وتكون هذه القرابة المعنوية أشد تأثيراً من القرابة المادية بدرجات.

والأمة المحكومة التي تنسى تاريخها، تكون قد فقدت شعورها ووعيها، وهذا الشعور والوعي، لا يعود اليها الا عندما تتذكر ذلك التاريخ وتعود اليه. ولهذا السبب، نجد أن الأمم المستولية والحاكمة، تعمد قبل كل شيء الى مكافحة تاريخ الأمة المحكومة، وتبذل ما استطاعت من الجهود لأجل اقصاء ذلك التاريخ عن الأذهان. إنها تسعى، من جهة، الى تشويه هذا التاريخ لأجل تجريده من قوة الجذب والتأثير، كما تعمل، من جهة أخرى، على إلهاء الاذهان بوقائع تاريخها هي وبهر الانظار بشعشعة التاريخ المذكور. وأما اليقظات القومية، بعد عهود الحكم الأجنبي، فتبدأ عادة، بعكس ذلك، بتذكر التاريخ القومي وبالاهتمام به اهتماماً خاصاً.

يتبيّن من كل ما تقدم: ان اللغة والتاريخ، هما العاملان الاصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات. والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها،

وأصبحت في حالة السبات، وأن لم تفقدالحياة. وتستطيع هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة الى تاريخها القومي وبالاهتمام به اهتماماً فعلياً، ولكنها اذا ما فقدت لغتها، تكون عندئذ قد فقدت الحياة ودخلت في عداد الأموات، فلا يبقى سبيل الى عودتها الى الحياة، فضلاً عن استعادتها الوعي والشعور.

ولكن العوامل التي تؤثر في تكوين الأمم، وتُميّز بعضها من بعض لا تنحصر في اللغة والتاريخ، بل إن هناك عوامل أخرى تؤثر في ذلك تأثيراً واضحاً، فتقوي تارة تأثير العاملين الأساسيين المذكورين آنفاً، وتضعف ذلك التأثير طوراً. إن أهم هذه العوامل، هو الدين.

لأن الدين يولد نوعاً من "الوحدة" في شعور الأفراد الذين ينتمون اليه، ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيراً شديداً، فالدين يعتبر من هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتؤثر بذلك في سير السياسة والتاريخ. غير أن تأثير الدين في تسيير السياسة والتاريخ وتكوين القومية والوطنية، على هذا المنوال، لا يجري على وتيرة واحدة في كل الاحيان. بل ان هذا التأثير يختلف باختلاف الاديان من جهة، وباختلاف العصور والادوار من جهة أخرى. ونستطيع أن نقول لذلك: ان علاقة الأديان بالقوميات من المسائل المعضلة التي تحتاج الى بحث عميق وتحليل دقيق. يجب علينا أن نلاحظ في هذا الصدد- قبل كل شيء - ان الأديان تنقسم من الوجهة الاجتماعية الى صنفين أساسيين: الأديان القومية، والأديان العالمية.

ذلك لأن بعض الأديان تنحصر بقوم أو شعب أو مدينة. ومعتنقو هذه الأديان يعتقدون بإله خاص بهم دون غيرهم، ويزعمون أنه يحميهم دون سواهم. ولذلك فأنهم لا يسعون الى نشر دينهم ومعتقدهم بين الانام، بل بعكس ذلك يسدون أبواب هذا الدين في وجوه سائر الاقوام. ولا حاجة الى القول أن أمثال هذه الديانات الخاصة، تكون بمثابة أديان قومية بكل معنى الكلمة، ومن الطبيعي أن الرابطة التي تتولد منها تنضم الى تأثير اللغة والتاريخ، وتقوي الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض. ولذلك كله نجد أن الحياة الدينية لدى تلك الاقوام، لا تنفصم عن الحياة السياسية أبدا، فتزيد أفراد القوم ترابطا على ترابطهم وتماسكا على تماسكهم. فنستطيع أن نقول أن الروابط الدينية تكون في هؤلاء الاقوام من عناصر القومية الاساسية. من المعلوم أن الديانة الاسرائيلية، وكثيرا من الأديان الوثنية القديمة كانت من هذا القبيل.

ولكن الاحوال تختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً، في الأديان العالمية، لأن هذه الاديان لا تختص بشعب من الشعوب أو امة من الامم، بل بعكس ذلك تفتح أبوابها لجميع الاقوام، وتدعو الى اعتناقها جميع الانام، على اختلاف لغاتهم وأجناسهم. إن هذه الأديان إنما تسعى الى الانتشار بين أكبر عدد ممكن من الافراد والجماعات، وتميل الى ايجاد رابطة أعم من روابط اللغة والتاريخ، وتخلق بذلك نوعا من الجو الاعمى الذي يحيط بكثير من الاقطار ويغمر كثيرا من الاقوام. ومن البديهي أن أصحاب هذا الصنف من

الديانات كثيرا ما يميلون الى معارضة القوميات. ومن المعلوم أن الديانة المسيحية والديانة الاسلامية من جملة هذه الأديان العالمية التي لعبت دورا هاما في سير التاريخ.

قلنا أن هذه الديانات تسعى الى خلق نوع من الجو الأمُمي الذي يجمع مختلف الاقوام ويغمرهم غمرا. ولكنه، يجب علينا أن نتساءل: هل نجحت الأديان العالمية التي ذكرناها. فيما كانت تنزع اليه في هذا الصدد؟ و هل أوجدت بهذه الصورة رابطة أقوى وأعم من الروابط القومية الأخرى؟

إن التاريخ يشهد على عكس ذلك تماماً: أن الأديان العالمية لم تنجح في ذلك، الا داخل نطاق محدود، والى مدة قصيرة جداً. إنها لم تستطع ان تمزج الاقوام مزجاً حقيقياً، وأن تزيل الفوارق التي تميز بعض أولئك الاقوام من بعض تماماً، الا بقدر ما نجحت في نشر لغة من اللغات، وبقدر ما أوجدت من التبدل في حدود القوميات. فالديانة المسيحية مثلا، حاولت أن تشمل العالم بأجمعه، و مع هذا، فإنها لم تحل دون افتراق المسيحيين أنفسهم الى أمم ودول عديدة، ودون تخاصم وتحارب هذه الأمم والدول فيما بينها. وكذلك الأمر في الاسلام: من المعلوم أن الدعوة الاسلامية أيضا سعت الى جمع الانام تحت راية القرآن، ولكن التاريخ يشهد على أن المسلمين أنفسهم لم يبقوا متحدين تماماً، الا لمدة محدودة جداً، وأن انتشار الاسلام لم يحل دون تفرق المسلين الى أمم ودول، ودون حدوث منازعات ومخاصمات بين الدول الأسلامية نفسها:

ذلك لأن المبادىء النظرية شيء، والحقائق الراهنة شيء آخر، وما يرد في التعاليم الدينية شيء، وما يتحقق في الحياة الاجتماعية شيء آخر. والأديان العالمية لم تستطع أن توحد القوميات. وحتى في الادوار التي وصلت سلطتها وسيطرتها خلالها الى أقصى الدرجات. ولا غرابة في ذلك أبداً: لأن الاديان نفسها كثيراً ما تتفرق الى مذاهب متنوعة. والقوميات المختلفة كثيراً ما تجد في الاختلافات المذهبية سبيلاً للمحافظة على كيانها، على الرغم من الجو الأممي الذي تخلفه الأديان العالمية، وذلك عن طريق اعتناق مذهب جديد، وحمل راية مذهب خاص.

زد على ذلك أن الدين ولو كان أمراً باطنياً في حد ذاته، فإنه لا يخلو من المظاهر الخارجية. ولا يستغني عن الوسائط المادية، فيخضع لذلك لقوانين الحياة الاجتماعية، كم يتضح من التفاصيل التالية:

أولا: أن التعاليم الدينية تستمد قوتها من كتاب خاص، و هذا الكتاب إنما يكون للمنفعة من اللغات.

ثانيا: هذه التعاليم تفرض بعض الطقوس والصلوات، و هذه أيضاً انما تكون بلغة من اللغات.

ثالثا: ان الأديان تتطلب تشييد بعض المعابد والمباني لاقامة شعائر الدين. و هذه المعابد لا بد من أن يتولى شؤونها بعض الرجال، وهؤلاء الرجال انما يتكلمون بلغة من اللغات، وينتسبون الى أمة من الأمم.

يظهر من ذلك كله أن للدين علاقة قوية باللغة: فإن كل دين من الأديان يقوم على لغة، ويعمل بطبيعته على نشر تلك اللغة. إن اللاتينية انتشرت بواسطة الديانة المسيحية

أكثر مما انتشرت بواسطة الفتوحات الرومانية، واللغة العربية انتشرب بواسطة الدين الاسلامي. أكثر مما انتشرت بحكم السياسة والادارة.

ومما يظهر علاقة الدين باللغة بوضوح أعظم، أن اللغة عندما تأخذ في التلاشي وتسير نحو الاندراس،- تاركة محلها لغة عامية متفرعة منها، أو لغة أجنبية متغلبة عليها - تجد لنفسها ملجأ أخيراً في المعابد وفي الطقوس الدينية والصلوات. فإن اللغة اللاتينية مثلا، ما تزال تردد وترتل في الكنائس الكاثوليكية خلال الطقوس الدينية، مع أنها قد خرجت عن نطاق تخاطب الناس، ودخلت في عداد اللغات الميتة منذ عدة قرون، وكذلك الأمر في اللغة السريانية. ونستطيع أن نقول لذلك: أن الدين اذا اتحد مع لغة من اللغات قوى جذور تلك اللغة وحافظ على كيانها، أكثر من جميع العوامل الاجتماعية الاخرى.

يتبين من كل ما تقدم أن الروابط الدينية لا تخلو من التأثير في الروابط القومية، وتأثيرها هذا قد ينضم الى تأثير اللغة والتاريخ، فيقوي الروابط القومية، وقد يخالف التأثير المذكور فيضعف تلك الروابط. ومهما كان الأمر، فإن الرابطة الدينية وحدها لا تكفي لتكوين القومية، كما أن تأثيرها في تسيير السياسة، لا يبقى متغلباً على تأثير اللغة والتاريخ. إن هذا التأثير يشتد أو يتراخى، يتقوى أو يتلاشى، حسب تطور علاقة الدين باللغة، ويبقى أمرا ثانويا في تكوين القوميات بالنسبة الى تأثير اللغة والتاريخ.

إننا نستطيع أن نلخص أبحاثنا السابقة بما يلي: إن العاملين الاساسيين في تكوين القومية هما اللغة والتاريخ: ونستطيع أن نضيف الى ذلك ما يأتي: لا يتغلب عامل من العوامل الاجتماعية على تأثير اللغة والتاريخ في هذا المضمار، سوى عامل الاتصال الجغرافي، لأن فقدان الاتصال الجغرافي قد يؤدي الى بقاء اجزاء الأمة الواحدة منفصلا بعضها عن بعض، رغم اتحادها في اللغة والتاريخ. زد على ذلك، انه قد يؤدي، بمرور الزمن، الى تباعد وتباين في اللغة والتاريخ أيضا.

إن هذه النتيجة التي تظهر من تتبع الحوادث الاجتماعية واستعراض الوقائع التاريخية، لم ترق لرجال الدول التي اعتادت أن تحكم بعض الشعوب بالرغم من اختلاف لغاتها وتباين تواريخه، ولذلك أخذ مفكرو تلك الدول يبحثون عن نظرية تبرر بقاء الوضع القائم في بلادهم وتوصلوا الى نظرية جديدة، عرفت باسم "مشيئة التعاشر ورغبة الاتحاد". قالوا أن أهم العوامل التي تلعب دورا حاسما في تكوين القومية، هو مشيئة الجماعات في البقاء متحدين، وفي تكوين أمة متحدة ذات شخصية واستقلال.

انهم عللّوا نظريتهم هذه بالملاحظات التالية: من الأمور البديهية أن الروابط القومية هي روابط معنوية، ومن الأمور المسلَّم بها أن أهم ما في مقومات شخصية الانسان هو الارادة والمشيئة. ونستطيع أن نقول لذلك: أن أهم ما في مقومات شخصية الجماعات أيضا هو الارادة والمشيئة: ارادة القوم في الحياة المعشرية، رغبتهم في الاتحاد، مشيئتهم في تكوين أمة واحدة ودولة واحدة، هي التي تكون روح القومية ومحورها الاساسي. والأمة، انما هي مجموع الافراد الذين "يريدون" أن يعيشوا عيشة معشرية، متحدين متضامنين، مؤلفين دولة مستقلة...

ولكن هذه النظرية التي تبدو خلابة في الوهلة الأولى، تنهار بسرعة، حينما يتعمق المرء في درس القضية بامعان: "مشيئة الجماعة" تعبير مجرد تماماً عن أمر غامض جداً. ذلك لأن هذه "المشيئة" لا تظهر الا بالتصويت، ومن المعلوم أن التصويت يتأثر كثيراً بالاعتيادات والدعايات، وتتحول لذلك بسرعة، وذلك يخرج "الامة" من عداد "الجماعات الطبيعية"، ويجعلها شبيهة بالاحزاب المصطنعة.

إن أصحاب نظرية "المشيئة" اضطروا لذلك الى تعديل تعريفهم، واتمامه بقولهم "المشيئة التي تظهر بصورة فعلية"، ولكن التاريخ يعطينا أمثلة عديدة تكفي لتفنيد النظرية المذكورة بهذا الشكل المعدل أيضاً: مثلاً ان الولايات الجنوبية في أميركا كانت أرادت الانفصال عن ولايات الشمال، وكانت أظهرت ارادتها هذه بصورة فعلية خلال الحروب التي خاضت غمارها ضد الجيوش الشمالية، ومع هذا فانها لم تؤلف أمة خاصة مستقلة عن الولايات المتحدة الامريكية.

في الواقع ان أصحاب النظرية المذكورة حاولوا أن يدفعوا أمثال هذه الانتقادات، باضافة قيد جديد على تعريفهم الاساسي، فقالوا "المشيئة التي تظهر بصورة فعلية وتستمر مدة طويلة". ولكن من البديهي أن تعبير "مدة طويلة" تعبير غامض لا يصلح أن يكون أساساً لنظرية علمية. وزيادة على ذلك، فإن الرغبة والمشيئة، من الأمور النفسانية التي لا تخلو من دواع وأسباب، والنهج العلمي يتطلب دوماً استكشاف هذه الدواعي واستطلاع تلك الأسباب، فاذا سلمنا "بأن الامة هي جماعة من الناس الذين يريدون أن يعيشوا متحدين، وأن يكونوا دولة مستقلة" وجب علينا أن نتساءل في الوقت نفسه:

ما هي الاسباب والعوامل التي تدفع بعض الجماعات الى مثل هذه الرغبة، وتولد فيهم مثل هذه الارادة؟ لماذا يرغب الافراد أن يعيشوا متحدين كأمة متميزة، ولماذا يريدون أن يؤلفوا دولة مستقلة؟ ما هي العوامل التي تولد في نفوس القوم الرغبة في الاتحاد أو الانفصال والتي تدعهم يريدون أن يعيشوا متحدين أو متفرقين؟

ولا حاجة الى القول: ان هذه الاسئلة، تعيدنا الى النقطة التي كنا بدأنا منها درسنا وبحثنا في عناصر القومية، وتوصلنا في آخر الأمر الى النتيجة التي كنا حصلنا عليها قبلاً: إن أهم العوامل التي تولد في النفوس رغبة الاتحاد، فتؤدي الى تكوين القومية وتأليف الامة، انما هي: وحدة اللغة والتاريخ.

-1-

ماذا يجب أن نفهم من تعبير "وحدة التاريخ"؟

ان الاجابة عن هذا السؤال اجابة دقيقة من الأمور الصعبة جداً، لأن وحدة التاريخ" بمعناها المطلق التام، مما لا يتحقق أبداً في حياة أمة من الأمم، ولا دولة من الدول. ففي كل دولة توجد بعض الاقطار التي لم يتحد تاريخها مع تاريخ بقية أقطارها الا منذ مدة قصيرة، توجد بعض الاقطار التي يختلف تاريخها عن تاريخ الاقطار الباقية

قليلاً أو كثيراً، وذلك ليس في الدول والأمم التي اتحدت حديثا فحسب، بل في الدول والأمم التي أتمت وحدتها القومية منذ عدة قرون أيضاً. واذا أمعنا النظر في تاريخ فرنسا مثلاً، - وهي التي سبقت سائر البلاد الاوروبية الى تكوين وحدة قومية-، وجدنا فيها عدة مقاطعات لم تلتحق بها الا منذ بضعة قرون، وعلمنا أن قسماً من مقاطعاتها كانت قد حاربت مقاطعاتها الأخرى حروباً طويلة، استمرت عدة قرون.

فعندما نقول "وحدة التاريخ" يجب ألا نفهم من ذلك "الوحدة التامة في جميع أدوار التاريخ،" بل يجب أن نفهم من ذلك "الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في أهم صفحات التاريخ": أهم صفحات التاريخ التي اوجدت ثقافة الامة الاساسية، وأعطتها لغتها الحالية، وطبعتها بطابعها الخاص... والا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة، كانت "موحدة" على طول تاريخها توحيداً تاماً. فقد قال أحد المفكرين: "على كل امة ان تنسى قسماً من تاريخها". أنا لا أشك في أن هذا القول ينطوي على حظ كبير من الحقيقة. فان الوحدة الحقيقية في أمة من الامم لا يمكن أن تضمن الا بنسيان قسم من الوقائع التي حدثت لها خلال تاريخها الطويل.

هذا وأرى أن أصرح بأنني عندما أقول :نسيان قسم من وقائع التاريخ" لا أقصد بذلك حذف أخبار تلك الوقائع من الكتب، بل أقصد من ذلك اهمال تلك الوقائع وأبعادها عن منطقة "الفكر الفعالة" وتغليب التاريخ المشترك عليها. فيجب علينا ألا ننسى أبدا انه ما من أمة ولا دولة، لا يكون لبعض أقسامها تاريخ خاص، يختلف عن تاريخ أقسامها الأخرى، ولو في بعض الادوار من تاريخها. ويجب أن نعلم العلم اليقين، أن التاريخ يعمل عمله الفعال في تكوين الامم، على الرغم من أمثال هذه الاختلافات العارضة الطفيفة.

-2-

وبمناسبة قصة "تأثير الدين في تكوين القوميات" أود أن ألفت الانظار الى أمر جوهري آخر: ينظر بعض الناس الى علاقة المسلمين بالمسيحين في العالم العربي الآن بمنظار متوارث من عهود الحروب الصليبية، أو مستعار من عهد الادارة العثمانية، واني أعتقد أن في كلتا النظرتين خطأ فاحشاً جداً. إن الحروب الصليبية كانت قد حدثت في عهد كان فيه الوعي القومي مفقوداً في كل البلاد، وكان فيه الدين مسيطراً على كل شيء في جميع أنحاء العالم. ومن الواضح الجلي أن الحياة الاجتماعية والسياسية في هذا العصر تختلف عن ذلك اختلافاً كلياً، في العالم الاسلامي وفي العالم المسيحي على حد سواء.

كما أن علاقة المسلم بالمسيحي في العالم العربي الآن تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه في العهد العثماني، لأن الفرق بين المسلم والمسيحي في الدولة العثمانة لم يكن فرقا في الدين فحسب، بل كان فرقا في اللغة والتاريخ والقومية أيضا. فان كلمة "مسلم" في الدولة المذكورة كانت تعني - في الدرجة الأولى - التركي، وأما كلمة "مسيحي" فكانت تعني - في الدرجة الاولى- الارمني والرومي والبلغاري.... ومن

المعلوم أن هؤلاء كانوا يختلفون عن الأتراك اختلافاً كلياً، من حيث اللغة والعنصرية والتاريخ أيضاً، اذ كان لكل واحد منهم لغة خاصة يتمسك بها، وتاريخ خاص يدرسه ويتوق الى احيائه، وملوك سابقون وفتوحات ماضية يعززون ويمجدون ذكراهم وذكراها على الدوام.

ومن البديهي أن ما حدث في العهد العثماني في ذلك الجو المشبع بأنواع الخلافات لا يمكن أن يحدث في العالم العربي الآن. تلك الخلافات التي كانت تتحد وتمتزج خلالها النزعات الدينية مع النزعات القومية فتزيدها اضطراماً، لا يمكن أن تحدث في العالم العربي - حيث يتكلم المسلم والمسيحي بلغة واحدة. ويغذيان ويرتلان ويصليان بلغة واحدة، ويعززان ويمجدان تاريخاً طويلاً واحداً، ويشتركان في تشييد صراح أدب جديد واحد، وثقافة راقية عصرية واحدة. ولعل في تاريخ الثورة العربية، أبرز دليل على ذلك وأقوى برهان. هذه حقيقة جوهرية، يجب أن نضعها نصب أعيننا على الدوام.

بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية[6]

قد قرأت وسمعت-الى الآن- آراء وملاحظات كثيرة حول المفاضلة "بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية". وصرت أتلقى-منذ مدة- أسئلة متنوعة حول هذه القضية: لماذا تهتم بالوحدة العربية، وتهمل الوحدة الاسلامية؟ ألا ترى أن هدف الوحدة الاسلامية أسمى من هدف الوحدة العربية؟ وأن القوة التي تحصل من اتحاد المسلمين تكون أعظم من التي تحصل من اتحاد العرب؟ ألا تسلم بأن الشعور الديني في الشرق أقوى بكثير من الشعور القومي؟ فلماذا تريد أن تهمل استغلال ذلك الشعور القوي، وننفق قوانا في سبيل تقوية هذا الشعور الضعيف؟ هل تعتقد أن اختلاف اللغات يحول دون اتحاد المسلمين؟ أفلا تلاحظ أن مبادىء الشيوعية والاشتراكية والماسونية وغيرها تجمع بين أناس اختلفت لغاتهم وأجناسهم وبلادهم وأقاليمهم، ولم يمنعهم هذا الاختلاف كله من أن يتفاهموا ويتقاربوا ويجتمعوا على خطة واحدة ومبدأ واحد؟ أفلا تعرف بأن كل مسلم في سورية أو مصر أو العراق يعتقد بأن المسلم الهندي، أو الياباني، أو الاوروبي أخ له، كأخيه المسلم الذي يعيش معه جنباً إلى جنب؟ ففيم استحالة تحقيق الوحدة الاسلامية؟ يقول البعض: ان الوحدة الاسلامية أقوى من كل وحدة سواها، وأن تحقيقها أسهل من تحقيق أية وحدة أخرى. ما رأيك في هذا القول؟ ويدعي البعض- مخطئاً-: "ان فكرة الوحدة العربية دسيسة يقصد من ورائها الحيلولة دون توسع فكرة الوحدة الاسلامية، وذلك ليفصل بعض أقطار العالم الاسلامي، وتيسير ادامة السيطرة عليها" ماذا تقول في هذه الادعاء؟

---

[6] نشرت في مجلة الرسالة، (1939).

-1-

أعتقد بأن القضايا الاساسية التي يجب درسها وحلها عند التفكير في "المفاضلة بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية" تتلخص فيما يلي: هل "الوحدة الاسلامية" من الآمال المعقولة التي يمكن تحقيقها، أم هي من الاحلام الطوبائية التي لا يمكن تحقيقها؟ وعلى فرض الشق الأول: أتحقيقها أسهل أم أصعب من تحقيق الوحدة العربية؟ وهل يوجد شيء من المنافاة بين هاتين الوحدتين؟ وهل من سبيل الى تحقيق الوحدة الاسلامية، دون تحقيق الوحدة العربية؟

عندما نقدم على اعمال الذهن وانعام النظر في مثل هذه المسائل يترتب علينا- قبل كل شيء-أن نُحدد ما نعنيه من الوحدة الاسلامية والوحدة العربية بوضوح تام، وان نُعين نطاق شمول كل واحد من هذين التعبيرين بصراحة كاملة: من الأمور التي لا تحتاج الى شرح، أن الوحدة العربية تتطلب ايجاد وحدة سياسية من الاقطار العربية المختلفة التي يتكلم أهلوها باللغة العربية، وأما الوحدة الاسلامية فتتطلب-بطبيعة الحال- ايجاد وحدة سياسية من البلاد الاسلامية المختلفة التي يدين أهلوها بالديانة الاسلامية، بالرغم من اختلاف لغاتهم واجناسهم.

ومن المعلوم أن العالم الاسلامي يشمل: الاقطار العربية وتركية وإيران، والافغان، وتركستان، مع قسم من الهند، وجزر الهند الشرقية وبلاد القفقاس، وافريقية الشمالية مع قسم من افريقية الوسطى... بقطع النظر عن بعض الكتل المتفرقة في أوروبا وآسيا: في ألبانيا، ويوغسلافيا وبولندة والصين. ولا حاجة لبيان أن الاقطار العربية تشمل قسما من هذا العالم الفسيح.

ان كل من يضع هذه الحقائق الراهنة نصب عينيه - ويتصور خريطة العالم الاسلامي، ويلاحظ الموقع العالم العربي فيها- يضطر الى التسليم بأن الوحدة العربية أسهل بكثير من الوحدة الاسلامية، وبأن هذه الوحدة الأخيرة لا يمكن أن تتحق على فرض امكان تحققها-الا بالوحدة العربية.

اذ لا يمكن لأي عاقل أن يتصور حصول اتحاد بين القاهرة وطهران وكابل وحيدر آباد وبخارى، وكاشغر وفاس وتمبكتو ... دون أن يحصل اتحاد بين القاهرة وبغداد ودمشق ومكة وتونس. لا يمكن لأي عاقل أن يقول بامكان اتحاد الترك والعرب والفرس والملايو والزنج دون اتحاد العرب انفسهم.

لو كان العالم العربي أكبر سعه وأكثر شمولا من العالم الاسلامي،- بعكس ما هو الواقع الآن- لأمكن أن نتصور وحدة اسلامية دون وحدة عربية، ولجاز ان نقول إن تحقيق الوحدة الاسلامية أسهل من تحقيق الوحدة العربية. غير انه لما كان الأمر بعكس ذلك تماماً، فلا مجال منطقياً لمثل هذه الأقوال والتصورات بوجه من الوجوه. إن هذه الحقيقة يجب ألا تغرب عن بالنا، عندما نفكر ونتكلم في أمر الوحدة الاسلامية والوحدة العربية. ان فكرة الوحدة الاسلامية أوسع وأشمل من مفهوم الوحدة العربية، غير أنه ليس من الممكن أن نقول بالوحدة الاسلامية دون أن نقول بالوحدة العربية. ولهذا السبب يحق لنا أن ندعي أن كل من يعارض الوحدة العربية. يكون قد عارض الوحدة الاسلامية

أيضـاً. وأمـا مـن عـارض الوحـدة العربيـة، باسـم الوحـدة الاسـلامية أو بحجـة الوحـدة الاسلامية، فيكون قد خالف أبسط مقتضيات العقل والمنطق مخالفة صريحة.

-2-

بعد اثبات هذه الحقيقة، التي لا مجال منطقياً للاختلاف في شأنها -. يجدر بنا أن نلتفت الى حقيقة ثانية، لا تقل أهمية عنها: يجب علينا ألا ننسى أن المقصود من تعبير "الوحدة" في هذا المقام هو الوحدة السياسية، كما يجب علينا أن نلاحظ على الدوام ان مفهوم "الوحدة الاسلامية" يختلف عن مفهوم "الاخوة الاسلامية" اختلافاً كبيراً.

فإن الاتحاد شيء والتعاطف شيء آخر، والاتحاد السياسي شيء والاتفاق على مبدأ من المبادىء شيء آخر. فالدعوة الى الوحدة الاسلامية، تختلف بهذا الاعتبار عن الدعوة الى اصلاح احوال الاسلام، كما تختلف عن الدعوة الى زيادة التفاهم والتقارب والتضـامن بـين المسـلمين. ولـذلك نسـتطيع أن نقـول: ان مـن يـتكلم عـن مبـدأ الاخـوة الاسلامية، ومن يبحث عن فوائد التفاهم بين المسلمين، لا يكون قد برهن على امكان تحقيق الوحدة الاسلامية. وبعكس ذلك، من لا يسلم بامكان تحقيق الوحدة الاسلامية لا يكـون قـد أنكـر مبـدأ الاخـوة الاسـلامية، أو قـد عـارض مسـاعي النهـوض والتفـاهم بـين المسلمين. فكل ما يقال عن مبدأ الاخوة لا يكون دليلا كافيا على امكان تحقيق الوحدة الاسلامية...

-3-

اذا ألقينـا نظـرة عامـة علـى التـاريخ، واستعرضـنا تـأثيرات الأديـان فـي تكـوين الوحدات السياسية، وجدنا أن الأديان العالمية لم تتمكن من توحيد الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة الا في القرون الوسطى، وذلك في ساحات محدودة فقط، ولمدة قصيرة من الزمن فحسب. فإن الوحدة السياسية التي حاولت الكنيسة المسيحية تكوينها لم تستطع أن تجمع العالم الارثوذكسي مع العالم الكاثوليكي في وقت من الأوقات، كما أن الوحدة السياسية التي سعت لتكوينها البابوية في العالم الكاثوليكي نفسه لم تعمر مدة طويلة من الزمن.

وكذلك كان الأمر في العالم الاسلامي:- فإن الوحدة السياسية التي وجدت في صدر الإسلام لم تقوَّ على تقلبات الايام مدة طويلة. والخلافة العباسية نفسها لم تستطع أن تجمع كل المسلمين تحت رايتها السياسية، حتى عند بلوغها أوج قوتها وقمة عظمتها. كما أن البلاد التي كانت تخضع لسلطان الخلافة المذكورة نفسها، لم تحافظ على وحدتها السياسية بصورة فعلية مدة طويلة، ولم يمض وقت طويل على تأسيس الخلافة المذكورة الا وقد أصبحت سلطتها على بعض الاقطار معنوية أكثر منها مادية، فلم تقوَّ على الحيلولة دون انفراط عقد الاقطار المذكورة، وتحولها الى وحدات سياسية عديدة مستقلة بعضها عن بعض بصورة فعلية.

ومما هو جدير بالانتباه في هذا الصدد، أن انتشار الدين الاسلامي في بعض الاقطار قد تم بعد أن فقدت الخلافة الاسلامية وحدتها الفعلية وقوتها الحقيقية، حتى أن هذا الانتشار جرى في بعض الاقطار بصورة مستقلة عن تأثير السلطات السياسية، وذلك على أيدي دعاة من التجار والشيوخ والدراويش، فالعالم الاسلامي بحدوده الواسعة الحالية، لم يكون وحدة سياسية في وقت من الأوقات.

فالوحدة السياسية التي لم تتحقق في القرون الماضية- في عهود بساطة الحياة الاجتماعية وسذاجة العلائق السياسية، وفي أدوار سيطرة التقاليد الدينية على كل ناحية من نواحي الأعمال والأفكار.....- ليس من الممكن أن تتحقق في هذا القرن، بعد أن تعقدت الحياة الاجتماعية وتعضلت المشاكل السياسية، وخرجت العلوم والصناعه من سيطرة التقاليد والمعتقدات.

-4-

إنني اعرف أن ما قررته هنا لا يروق الكثيرين من علماء الاسلام، أعرف أن الدلائل التاريخية التي ذكرتها آنفا لا تستطيع أن تؤثر في معتقد الكثيرين من رجال الدين، وذلك لأنهم قد تعودوا التكلم في هذه المسائل دون تذكر الحقائق التاريخية وملاحظة المصورات الجغرافية. كما أنها لم يألفوا التمييز بين مدلول "الاخوة الدينية" ومدلول - "الرابطة السياسية"، بل انهم نشأوا على المزج بين مبدأ "الاخوة الاسلامية" بمعناها الاخلاقي، وبين فكرة "الوحدة الاسلامية" بمعناها السياسي.

أنا لا أرى مبرراً للسعي وراء اقناع هؤلاء بخطأ اعتقادهم في هذا الأمر، غير أني أرى من الضروري أن أطلب اليهم الا ينسوا مقتضيات العقل والمنطق في هذا السبيل: لهم أن يحافظوا على اعتقادهم في إمكان تحقيق الوحدة الاسلامية، غير أن عليهم أن يسلموا في الوقت نفسه بضرورة السعي الى الوحدة العربية، على الاقل، كمرحلة من مراحل تحقيق الوحدة الاسلامية التي يعتقدون بها، عليهم-على كل حال- ألا يعارضوا المساعي التي تبذل في سبيل تحقيق الوحدة العربية، بحجة خدمة الوحدة الاسلامية التي يدعون اليها.

-5-

لعلّ أغرب وأخدع الآراء التي أُبديت حول قضية "الوحدة العربية" و"الوحدة الاسلامية" هو الرأي القائل بأن فكرة الوحدة العربية خُلقت لمحاربة "الوحدة الاسلامية"، وذلك لفصل بعض الاقطار الاسلامية تسهيلاً لإدامة السيطرة عليها. اذني لا أستطيع أن أتصور رأياً أكثر بعداً عن حقائق التاريخ والسياسة، وأشد مخالفة لأحكام العقل والمنطق من هذا الادعاء الغريب. فإن التفاصيل التي ذكرتها آنفاً عن علاقة الوحدة الاسلامية بالوحدة العربية تكفي لإظهار خطأ هذه المدعيات من حيث الاساس.

مع هذا، أرى أن أضيف الى تلك التفاصيل بعض الملاحظات لزيادة البرهان والايضاح: لا انكر أن الإنكليز سايروا الحركة العربية وصانعوها أكثر من سائر الدول.

ومـا ذلـك الا لأنهـم أكثـر عمليـة فـي السياسـة، وأسـرع فهمـا لنفسـيات الأمـم وحقـائق الاجتماع.... إنهم عرفوا القوة الكامنة في الفكرة العربية قبل غيرهم، فرأوا أن يسايروها بعـض المسـايرة ويصـانعوها بعـض المصـانعة - بـدلا مـن محاربتهـا مباشـرة-ليـدفعوا ضـررها عـنهم ويجعلوهـا أكثـر ملاءمـة لمصـالحهم. يجـب أن نعـرف جيـدا أن السياسـة الانكليزية سياسة عملية، تتكيف مع الظروف، وتنتهز الفرص على الدوام، ويجب الا ننسى أن بريطانيا العظمى هي التي خلصت الدولة العثمانية- التي كانت صاحبة الخلافة الاسلامية- من استيلاء الروس عدة مرات وهي التي كانت أوقفت الجيوش المصرية في قلب الاناضول، لتخليص مقر الخلافة الاسلامية من استيلاء تلك الجيوش الظافرة، و هي التي كانت حالت دون اتحاد مصر مع سورية في عهد محمد على الكبير.

فكل من يتهم فكرة الوحدة العربية بأنها دسيسة أجنبية، يكون قد قال بخدعة ليس وراءها خدعة، ووقع في انخداع ليس وراءه انخداع. يجب أن نعلم حق العلم أن فكرة الوحدة العربية فكرة طبيعية، لم يوجدها موجد، انها نتيجة طبيعية لوجود الامة العربية نفسها. هي قوة اجتماعية، تستمد نشاطها من حياة اللغة العربية، و تاريخ الامة العربية، واتصال البلاد العربية. فلا يستطيع أحد أن يدعي - بصورة منطقية - أن الانكليز هم الذين خلقوا فكرة الوحدة العربية، الا اذا استطاع أن يبرهن على أن الانكليز هم الذين خلقوا اللغة العربية، وأوجدوا تاريخ الامة العربية، وكونوا جغرافية البلاد العربية. إن فكرة الوحدة العربية من التيارات الطبيعية التي تنبع من أغوار الطبيعة الاجتماعية، لا من الآراء الاصطناعية التي يستطيع أن يبتدعها الأفراد، أو تستطيع أن تخلفها الدول. إنها ظلت كامنة - شأن الكثير من القوى الطبيعية والاجتماعية - منذ عدة قرون، لأسباب وعوامل تاريخية كثيرة، لا محال لشرحها هنا، غير أن كل شيء يدل على أن دَور كمونها قد انتهى، وان تيارها أخذ يظهر للعيان، وصار يتدفق شيئا فشيئاً. ولا شك في أن تيار هذه الفكرة سيزداد تدفقاً من جميع النفوس العربية بسرعة متزايدة تزايداً هائلاً. وسوف لا يلبث حتى يغمر جميع البلاد العربية، ويعيدها الى مجدها السالف ونضرتها الأولى، بل الى ما هو أخصب وأسمى منها. هذا ما يجب أن يكون ايمان كل متنور من الناطقين بالضاد.

λ_;